النهار
الاربعاء ٤ كانون الثاني ١٩٩٥

ميشال شيحا طالما رأى ودافع ولبنانه الهاجس والمالىء الافكار

في الذكرى الاربعين لرحيل المفكر، والقانوني، والصحافي اللبناني ميشال شيحا صدر كتابه "لبنان اليوم - ١٩٤٢"(١) ترجمة من الدكتور احمد بيضون مع مقدمة من غسان تويني، وهو يوقظ في ذاكرة اللبنانيين تلك الايام المكتنزة بجمر القلق، ولهب البحث الدؤوب عن كيفية نقل البلاد من حكم الانتداب الى مرحلة الحكم الوطني، وكان صك الانتداب نفسه نص على "ان الدول المتحالفة اختارت فرنسا لارشاد شعبي سوريا ولبنان". يومها، كان الانتداب فكرة حديثة اقترحها رئيس وزراء اتحاد جنوب افريقيا جان كريستيان شمتس خلاً وسطاً بين التوجهات الاحتلالية الاوروبية، والموقف الاميركي القائل "بحق تقرير المصير"، واهمية ميشال شيحا عبر ابوته لدستور ١٩٢٦ تعود الى وضعه البلاد على خط الاستقلال الناجز.

تقول كلمة الناشر: "لقد وافقت "مؤسسة شيحا" على نشر الترجمة بالشكل الحالي مع مقدمة لغسان تويني مكونة من نصين يعززان تاريخية المناسبة لما يحملان من تفسير للكتيب، ولفكر ميشال شيحا السياسي، والدستوري، مقال صدر في عدد خاص لمجلة "الحكمة" عام ١٩٩٥ عن ميشال شيحا، ومختارات من محاضرة نشرت في "النهار" في ٢٣ ايار عام ١٩٦٥".

في مقدمته يطرح غسان تويني التساؤلات:

"لبنان اليوم... وما هو اليوم؟

باذا يختلف لبنان اليوم عن لبنان الأمس؟

ولبنان الغد اتراه يكون غير لبنان اليوم؟"

الى ان يقول مستنتجاً:

"من هنا، هذا التساؤل الأليم المقلق: كيف يمكن ان نبني لأنفسنا بيتاً وان ننشئ تقاليد وسط كل هذه الزعازع؟ لا يمكن ان يكون لبنان بلد تهورات وانقلابات، هو بلد يجب ان يحميه التقليد من القوة اذ كل هزة تصيبه تعرض ما يفعله له الزمن. وعلينا، تالياً، ان نفضل دائماً للبنان، التطور البطيء، العميق على الثورة العنيفة، والمؤسسات الثابتة على الحركات القصوى".

يقول جوزف باسيلا في كتابه "نوافذ" عن ميشال شيحا: "لم ينجذب ميشال الى الخصومات، والمعارك القلمية او اليدوية. لم يعن بالفلسفة كما لم يعن بالقضايا الاجتماعية، لقد تحلى بطابع الاعتدال، والهدوء، والابتعاد عن الجلبة الفارغة في كل ما كتبه".

وفي الواقع، يوم تقرر وضع دستور للبلاد وفق صك الانتداب تشكلت لجنة اعداد القانون الاساسي برئاسة ميشال شيحا لتوجه مجموعة اسئلة الى مفكري البلاد للاجابة عنها خطياً. ناقش مسودة ميشال شيحا كل من: موسى نمور، الدكتور جميل تلحوق، الفونس ايوب، اوغست باشا اديب، شبل دموس، الياس سكاف، ابرهيم حيدر، نخلة التويني، صبحي حيدر، اميز جميل شهاب، سليم تقلا، نجيب ابو صوان، ميشال نحاس، روكز ابو ناضر، وكميل يوسف شمعون، وتألف الدستور لدى وضعه من مئة ومادتين موزعة في ستة ابواب، كل منها من فصول، وجاء دستورا مرناً - يمكن تعديله اذا دعت الحاجة بشرط موافقة ثلثي المجلس.

وبعد اقرار الدستور اللبناني الاول اجتمع مجلسا النواب والشيوخ في ٢٦ ايار عام ١٩٢٦ وتم انتخاب شارل دباس(٢) اول رئيس للجمهورية، واقسم اليمين امام رئيس مجلس الشيوخ، الشيخ محمد الجسر، وفي ايامه وضع رشيد نخلة كلمات النشيد الوطني اللبناني، ولحنها وديع صبرا.

جاء في دستور عام ١٩٢٦ ان "لبنان الكبير دولة مستقلة ذات وحدة لا تتجزأ". على ان هذا الدستور علّق ثلاث مرات، اولاها في ٩ ايار ١٩٣٢ ثم في ٢١ ايلول ١٩٣٩، واخيراً في ١١ تشرين الثاني ١٩٤٣ كما عدل ٨ مرات آخرها في بداية عهد الرئيس الياس المراوي.

يقول ميشال شيحا في كتابه:

"فالحال اننا نتحكم تحكماً متزايداً في شبكة من الطرق الضرورية كان من هم اقوى منا وسيظلون يطلبون المرور عليها في ايام الازمات كما في ايام الهدوء، فاذا تركناهم يمرون كنا عرضة للفرق (ان كان العدو هو الذي يمر)، واذا منعنا عنهم المرور كان علينا ان نتوقع منهم ان يغتصبوه (ان لم يذد عنه غيرنا). وفي احداث الحرب الجارية، وفي الاحداث التي شهدها الشرق الاوسط، من قبل، ايام الحرب الكونية الاولى، شاهد جديد على مغامرتنا الازلية. نضيف الى ذلك، نيات مبيتة قد نكون عرضة لها".

بحس سياسي استشعر ميشال شيحا الاخطار التي ستحدق بالكيان اللبناني، وما هي رؤيته الاستشرافية تتحقق في الجنوب اللبناني حيث اسرائيل تتبع سياسة الارض المحروقة ازاء شعب اعزل الا من الايمان بوحدة ارضه، والثقة بانصهاره مع فئات الشعب اللبناني. وركز ميشال شيحا على قداسة الكيان اللبناني الذي اعتبر حدوده هي نفسها كانت لحدود دولة فينيقيا، واعتبر سياسة الملاينة انها شرط اساسي من شروط الاستقرار النسبي للبلاد.

وفي هذا السياق يصل ميشال شيحا الى خلاصات هامة، منها: "وما هم المردة في لبنان، ايام الامويين. جاؤوا من تخوم طوروس لينتهي بهم الامر الى الامتزاج بالموارنة الذين كانوا وجدوا لهم ملجأ في الجبل اللبناني قبلهم بمدة طويلة، واتشأوا فيه وطناً". ويشير غسان تويني في مقدمته الى ان ميشال شيحا: "لم يقل لنا ان لبنان أمة، ولا قال انه ليس بالأمة، ولا أخاله، لو سئل، الا قائلاً ان لبنان لبنان وكفى! ما ممنا، بالنسبة الى وجوده ان نطبق على هذا الوجود اسماً مدرسياً او صفة مجردة، ان الوجود الذي لا يتقبله العقل عبثاً ان تحجزه في مقاييس العقل"!

وبعد ان يشيد ميشال شيحا بالاسرة المعنية التي حكمت لبنان جاراً هذا الاعجاب على الاسرة الشهابية يقول: "منذ عهد فخر الدين المعني الثاني اخذ سكان لبنان يتكاثرون، يزدادون ازدياداً مستمراً يقادمين جدد، معظمهم مسيحيون فأخذ لبنان وهو يرسخ اركان شخصيته يزداد استحقاقاً لصفة الارض - الملجأ مؤدياً بذلك واحدة من وظائفه الطبيعية".

هكذا، اعتبر ميشال شيحا لبنان ارضاً مثابة ملاذ او ملجأ لكل الشعوب المضطهدة ليصل الى الاستنتاج: "شعب لبنان لبناني بكل بساطة" دون الدخول في اصوله السامية او الكنعانية او العربية. والى هذه الخلاصة يشد ميشال شيحا الفكرة التالية: "لقد كان للتنوع في الانساب، وفي العقائد ضلع كبير في تنويع الاعراف والقوانين على النحو الذي تشهد به نظم الاحوال الشخصية. ولكنا نعتبر، في ما احسب، ونحن على ما نحن عليه، امراً محالاً في نظر العقل المحض، لولا اننا موجودون، ولنا هذه الثقة الهادئة بالنفس نجبه بها الفلاسفة".

ورأى ميشال شيحا ضرورة التعامل مع الآخرين لكي نتمكن من التحكم في مصائرنا، وصون ارثنا الروحي، والحفاظ على لبنان الضيق في ارضه، وهو يقول: "ونحن لم ننظر اليه معزولاً بل مسنداً الى جيران" وهذا ما يجعلنا في "حالة غليان دائم" او "في شبه حركة ابدية".

ولهذا يقول شيحا بالتالي:

١- لبنان بلاد لاقليات طائفية متشاركة، ولا امكان لصموده السياسي من غير مجلس (اي مجلس نواب) يكون ملتقى لتوحيد الطوائف.

٢- سن قوانين تصلح لكل الطوائف.

٣- لبنان بلاد ممددة بتعديات مختلفة من جانب الباحثين عن اراضي ميعاد.

٤- لبنان بلاد تقاطع، لذا يتعين عليه تعزيز الاسرة اللبنانية، وبعلم اطفاله اخضاع الزمني للروحي، ورخاء العيش للحرية.

آمن ميشال شيحا بالديموقراطية لكنه اعتبر ان الاقليات الطائفية المتشاركة تبقى بعيدة عن ممارسة نهج ديموقراطي سليم او "مقدس" بحسب تعبيره. ومع ذلك، ينهي ميشال شيحا كتابه أو كلمته التي القاها في أحدى الامسيات البرلمانية بالقول: "لبنان اليوم، وهو لبنان المستقبل الذي لا يمس، وهو ايضاً وطن لجميع ابنائه على حد سواء، يسعه ويجب ان يعلن حقه في الحياة"، وفي لبنان اليوم جيل لا ينى يطالب، يستحث، يطرق الابواب الموصدة، ليؤكد حقه في حياة رغدة، مستقلة، ديموقراطية، وحرة.

وضاح يوسف الحلو

١- لبنان اليوم - ١٩٤٢، ميشال شيحا، نقله عن الفرنسية احمد بيضون مع مقدمة لغسان تويني، دار النهار للنشر ومؤسسة شيحا، ٨٣ صفحة من القطع الصغير، بيروت ١٩٩٤.

٢- ارتوذكسي بيروتي، خريج الجامعة اليسوعية، عمل في الصحافة، وكان مديراً للعدل قبل انتخابه اول رئيس بحسب الدستور اللبناني ليبقى في السلطة حتى سنة ١٩٣٤.